

علم المناسبات بين السور والآيات برؤية معاصرة - دراسة وصفية تقييمية

محمد الصالح ستي¹

¹جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة، الجزائر

taleb.se@gmail.com

استلم: 19-07-2026 ، مقبول: 21-07-2026 ، نشر: 29-07-2026

The Science of Coherence between Surahs and Verses from a Contemporary Perspective : A Descriptive and Evaluative Study

ABSTRACT : *The study of *munasabat* (the science of Qur'anic coherence and interconnections) is among the most precise and noble disciplines concerning the Holy Qur'an; it demands deep scrutiny, prolonged reflection, and keen insight—coupled with constant sincerity and purity of intention—for the exegete to discern the connections between the Qur'an's words and verses. This field has undergone significant renewal in its scope and methodology through its integration with contemporary exegetical approaches, such as the thematic unity of the Qur'anic *surah* and the *maqasidi* (purposive) interpretation of Qur'anic terms and verses. To safeguard this discipline against error and deviation, the exegete must cultivate God-consciousness (*taqwa*), avoid forced or contrived interpretations, and remain mindful of the Qur'an's sanctity and unique characteristics.*

KEYWORDS : *Quran, Relevance, Innovation, Evaluation.*

الملخص: يعد علم المناسبات من أدق وأجل العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم، إذ يتطلب إمعان نظر وطول تفكير ونفاذ بصيرة مع مداومة إخلاص وحسن قصد حتى يصل المفسر إلى المناسبة بين ألفاظ القرآن وآياته، وقد شهد هذا العلم تجديدا ظاهرا في مجالاته وأساليبه من خلال ارتباطه ببعض الدراسات التفسيرية المعاصرة كالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية والتفسير المقاصدي لألفاظ القرآن وآياته، وبغية ضبط هذا العلم من الزيغ والانحراف وجب على المفسر أن يتحرى تقوى الله تعالى، ويتعدى عن التكلف، ويراعي قدسية القرآن وخصوصياته.

الكلمات المفتاحية: القرآن؛ المناسبة؛ التجديد؛ التقييم.

*المؤلف المراسل: د. محمد الصالح ستي

مقدمة

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان واقتفى آثارهم إلى يوم الدين، وبعد :
من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم أنه كتابٌ محكمُ البناء، متناسقُ الأجزاء، مترابطُ المعاني، لا يظهر فيه تفكك ولا اضطراب، بل تنتظم آياته وسوره في نظام بديع يكشف عن براعة ترتيبه وسمو بيانه، ومن العلوم التي اعتنت بالكشف عن هذا الترابط علمُ المناسبات القرآنية، الذي يبحث في وجوه الارتباط بين الآيات والسور، ويبرز وحدة النظم القرآني وتماسكه.

وقد حظي هذا العلم بعناية العلماء منذ القرون المتقدمة، فأثمرت جهودهم فوائد بليغة واستنباطات دقيقة، في فهم أسرار الترابط والاتساق بين سور القرآن وآياته، غير أن الدراسات القرآنية المعاصرة أعادت النظر في هذا العلم، وانتقلت به من مجرد بيان للروابط اللفظية والبلاغية إلى آفاق مفاهيمية وشكلية واسعة، تدور رحاها حول الوحدة الموضوعية للسورة، ومقاصد الخطاب القرآني، وقد أسهمت الدراسات الحديثة في إبراز القرآن بوصفه نصًا متماسكًا تتكامل فيه المعاني والأهداف، وتنسق فيه الغايات والمقاصد.

غير أن هذا العلم لم يسلم من بعض التكاليف والتعسفات خرجت به عن جادة الصواب، كما أن هناك بعض القراءات القرآنية الحديثة استغلت هذا العلم في خدمة نظريات غريبة دخيلة عن القرآن الكريم، لا تحترم قدسيته ولا تراعي خصوصيته، مما يجعل حد هذا الباب بجملة من الضوابط والشروط أمراً ضرورياً.

انطلاقاً من ذلك، تتمحور إشكالية هذا البحث حول سؤال رئيس:
ما هي أهم معالم التجديد في علم المناسبات القرآنية؟ وكيف يمكن تقييم هذا العلم في ظل هذه النظرة المعاصرة؟

يندرج تحت هذه الإشكالية الرئيسة جملة من التساؤلات الفرعية:

- 1- ما هو تعريف التناسب وما هي أهم أقسامه وأنواعه؟
- 2- ما هي أهم العلوم المعاصرة التي أسهمت في تجديد علم المناسبات؟
- 3- ما هي أهم الإيجابيات والمزايا التي أنتجتها النظرة التجديدية لعلم المناسبات؟

4- ما هي أهم الضوابط والشروط اللازمة لصيانة علم المناسبات من الخطأ والاستغلال؟

- أسباب اختيار الموضوع: كان من وراء البحث في هذا الموضوع عدة أسباب أهمها:

1 - الحاجة إلى تجديد العلوم المتعلقة بالقرآن بما يتوافق ومتطلبات العصر.

2 - ظهور ألوان معاصرة للتفسير كان لها أثر ظاهر في تجديد علم المناسبات.

3 - الرغبة الشخصية في الكتابة حول المواضيع المتعلقة بالتجديد في علوم القرآن.

- أهمية الموضوع: تظهر أهمية الموضوع فيما يأتي:

1 - تعلقه بالقرآن الكريم، وشرف العلم بشرف المعلوم.

2 - تعلق علم المناسبات بجانب كبير من بيان إعجاز القرآن الكريم وروعة نظمه.

3 - ضرورة إحاطة علم المناسبات بجملة من الضوابط تقيه من الزلل والانحراف.

- خطة الدراسة: للإجابة عن الإشكالية الرئيسة والأسئلة المتفرعة عنها، اتبعت الدراسة

خطة تتضمن مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة لأهم النتائج، وذلك على التفصيل الآتي:

مقدمة

المبحث الأول: مفهوم علم المناسبات

المطلب الأول: تعريف علم المناسبات لغة واصطلاحاً

المطلب الثاني: أنواع التناسب في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: معالم التجديد في علم المناسبات

المطلب الأول: أثر التفسير الموضوعي في تجديد علم المناسبات.

المطلب الثاني: دور التفسير المقاصدي في تجديد علم المناسبات

المبحث الثالث: تقييم علم المناسبات وما طرأ عليه من تجديد

المطلب الأول: فوائد ومزايا علم المناسبات

المطلب الثاني: مؤخذات وضوابط.

المبحث الأول: مفهوم علم المناسبات

المطلب الأول: تعريف علم المناسبات لغة واصطلاحاً

الفرع الأول: تعريف المناسبات لغة

المناسبات جمع مناسبة، والمناسبة مصدر ناسب يناسب تناسباً، وتعني المشاكلة والمشابهة والمقاربة: يُقال بين الشيئين مناسبة وتناسب أي مشاكلة وتشاكل، ومنه فلان يناسب فلاناً، أي يقاربه ويشاكله، ومنه النسب الذي هو القريب المتصل بغيره، كالأخ وابن العم.¹

الفرع الثاني: تعريف علم المناسبات اصطلاحاً

المناسبة في الاصطلاح العام: هي علة الترتيب.²

والتناسب في اصطلاح علم البلاغة: هو الترتيب للمعاني المتأخية التي تتلاءم ولا تتنافر.³

أما علم المناسبات في اصطلاح المفسرين فقد ذكرت له العديد من التعريفات منها:

- عرفه الإمام البقاعي: "هو علم تُعرف منه علل ترتيب أجزاء القرآن".⁴

- عرفه العزّ بن عبد السلام: "المناسبة علم حسن لكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن

يقع في أمر متّحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ومن ربط ذلك فهو متكلّف".⁵

- عرفه ابن العربي: "هو ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة

المعاني منتظمة المباني".⁶

¹ ينظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، 523/4. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، 265/4. الصحاح، الجوهري، 245/2. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، 2199/3.

² علم المناسبات، عمر بازمول، ص 27.

³ ينظر: علم المفصل في علوم البلاغة، جمع وترتيب إنعام عكاوي، ص 12.

⁴ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، 5/1.

⁵ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، 370/3.

⁶ المصدر نفسه، 369/3.

ومن تعريفات المعاصرين قيل: "هو الارتباط بين بين الآيات القرآنية أو بين السور، لوجود أمر يقارب بينها"⁷، وقيل كذلك: "هو معرفة مجموع الأصول الكلية والمسائل المتعلقة بعلم ترتيب أجزاء القرآن العظيم بعضها ببعض"⁸.

ومما يلاحظ أن هذه التعريفات قديما وحديثا متقاربة من بعضها البعض، وتدور حول إبراز وبيان سر ترابط واتساق سور القرآن وآياته بعضها ببعض، وهو علم جليل يحتاج إلى طول تدبر وإمعان نظر في ترتيب آيات القرآن وسوره، وهو من علم التفسير بمثابة علم البيان من علم النحو، يظهر فيه سحر القرآن وإعجازه.

الفرع الثاني: أنواع التناسب

ينقسم التناسب في القرآن إلى قسمين كبيرين: التناسب داخل السورة الواحدة، والتناسب بين السور، ويندرج تحت كل قسم عدة أنواع، وسوف لن نحيط بكل هذه الأنواع في بحث محدود كهذا، بل سنذكر بعض هذه الأنواع فقط.

القسم الأول: التناسب داخل السورة الواحدة

أولاً: التناسب بين ألفاظ الآية الواحدة

يذكر أهل العلم في هذا الباب نوعين من التناسب:

النوع الأول: أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضاً بأن يقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله رعاية لحسن الجوار والمناسبة، ومثاله قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف 85].

أتى بأغرب ألفاظ القسم وهي: (التاء) فإنها أقل استعمالاً، وأبعد من أفهام العامة بالنسبة إلى الباء والواو، ثم أتى بأغرب الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار وهو (تفتأ) فإن الفعل

⁷ علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم، نور الدين عتر، ص 6.

⁸ علم المناسبات، عمر بازمول، ص 27.

(تزال) أقرب إلى الأفهام وأكثر استعمالاً، وأتى بأغرب ألفاظ الهلاك وهو (الحرص)، فاقتضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة، توخياً لحسن الجوار، ورعاية في ائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتناسب في النظم.

النوع الثاني: أن تكون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد فإن كان فخماً كانت ألفاظه فخمة أو جزلاً فجزلة أو غريباً فغريبة أو متداولاً فمتداولة أو متوسطاً بين الغرابة والاستعمال فكذلك، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُؤُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود 113].

لما كان الركون إلى الظالم وهو الميل إليه والاعتماد عليه، دون مشاركته في الظلم وجب أن يكون العقاب عليه دون العقاب على الظلم، فأتى بلفظ (المس) الذي هو دون الإحراق والاصطلاء⁹.

ثانياً: التناسب بين الآية والتي تليها

مثاله: قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة 5] فإنه لما ذكر في أول السورة استحقاق الله تعالى لكل المحامد، وكونه رباً للعالمين، وهو الرحمن الرحيم، وهو مع كل هذا الملك المتصرف في اليوم الذي لا ملك فيه لأحد إلا لله ... كان من شأن كل عاقل أن يقبل على من هذه صفاته وتلك عظمته معترفاً بالعبودية له والذل الكامل لجناحه العظيم ملتجئاً إليه طالباً منه العون والمدد، ثم إنه لما حمد وأثنى ومجد واعترف بالعبودية ناسب أن يستشرف للطلب من ذلك الرب المستعان، فيقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة 6].

ثالثاً: التناسب بين فاتحة السورة وخاتمتها

ومثاله في سورة الحجر والتي تبتدئ بقوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ١ رَبِّمَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ٢ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهُمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ٣ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ٤ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ٥ وَقَالُوا يَأْتِيهَا الذِّى نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ٦﴾ [الحجر 1-6]

(9) ينظر: الإتيان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، 3/299-300.

فالحديث عن القرآن وموقف المشركين المعاندين منه ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد كذبوا بالقرآن وسخروا من رسول الله واتهموه بالجنون.

وتختتم السورة بقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر 92-99]، نعم كان يضيق صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كانوا يقولونه ويفترونه عليه من اتهامه بالجنون، ولكن الله سيكفيه أمر المفترين المستهزئين، فما عليه إلا الصبر والالتجاء إلى الله بالعبادة والتوكل.¹⁰

القسم الثاني: التناسب بين السور

أولاً: التناسب بين افتتاح السورة وخاتمة ما قبلها

يقول الزركشي في كتابه البرهان: "وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى، كافتتاح سورة الأنعام بالحمد؛ فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء، كما قال سبحانه ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر 75]، وكافتتاح سورة فاطر ب (الحمد) أيضا، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّريبٍ﴾ [سبا 54] وكما قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام 45]، وكافتتاح سورة الحديد بالتسبيح، فإنه مناسب لختام سورة الواقعة من الأمر به، وكافتتاح البقرة بقوله ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة 2] إشارة إلى (الصِّراط) في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة 6] كأنهم لما

¹⁰ ينظر مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص 75.

سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم، قيل لهم ذلك الصراط الذي سألتهم الهداية إليه هو الكتاب".¹¹

ثانيا: مناسبة مضمون السورة لمضمون ما قبلها

ذهب الإمام السيوطي إلى أن كل سورة ورد فيها إجمال في شيء ما فإن السورة اللاحقة لها تأتي بتفصيل هذا الإجمال، فمن ذلك أن سورة الفاتحة قد جمعت مقاصد القرآن الكريم "فهي كالعنوان للقرآن الكريم وبراعة الاستهلال له"، ثم جاءت سورة البقرة بتفصيل كثير مما أجمل في سورة الفاتحة:

ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة الفاتحة الطوائف الثلاث: الذين أنعم الله عليهم، المغضوب عليهم، الضالين، وأشار في سورة البقرة إلى شؤون هذه الطوائف الثلاث، فذكر الذين على هدى من ربهم، وذكر الذين اشتروا الضلالة بالهدى، وذكر الذين باءوا بغضب من الله. وقوله: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} جمع فروع الشريعة كلها، وردت في البقرة أحكام: الطهارة، الحيض، الصلاة، الجماعة، صلاة الخوف، الزكاة، الصوم، الحج. وقوله: {إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} ورد تفصيلها في البقرة شاملاً جميع علم الأخلاق، التوبة، الصبر، الشكر، الرضا، التفويض، المراقبة.¹²

¹¹ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، 38/1.

¹² ينظر: تناسق الدرر في تناسب السور، جلال الدين السيوطي ص 75-76.

المبحث الثاني: معالم التجديد في علم المناسبات

شهد علم المناسبات عدة أوجه تجديدية على غرار العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم، التي تتكامل وتتفاعل فيما بينها، فظهور ألوان حديثة معاصرة للتفسير كان له أثره في علم المناسبات، من حيث توسيع مجالاته، وفتح آفاق جديدة له.

المطلب الأول: أثر التفسير الموضوعي في تجديد علم المناسبات

يعتبر التفسير الموضوعي من ألوان التفسير المعاصرة، التي فرضها تطور حياة البشر وتجدد شؤونهم وحاجاتهم، وظهور أفكار ومفاهيم حديثة لا عهد للأجيال السابقة بها، وبروز مشكلات ونظريات اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية لم يكن لها أثر في عهد التنزيل، ما دفع بكثير من الباحثين إلى الرجوع إلى القرآن الكريم واستنطاق آياته وتثوير معانيه، من أجل إيجاد حلول لهذه المشكلات، وتلبية لهذه الشؤون والمتطلبات، فالقرآن الكريم صالح لكل زمان ومكان، وفي هذا اللون من التفسير يبدأ المفسر أساسا من الواقع الذي يعيشه، فيستخرج متطلباته وقضايا ومشكلاته، ثم يسوغها في شكل موضوع معين، ويعرضه على القرآن الكريم، ليستخلص منه الحلول والإجابات، وهذا ما اصطلح عليه بالتفسير الموضوعي.

وقدم الباحثون المعاصرون الذين كتبوا في التفسير الموضوعي تعريفات عديدة له، منها ما هو مطول، ومنها ما هو مختصر، ومنها ما ينطبق على لون من ألوان التفسير الموضوعي، ومنها ما ينطبق على أكثر من لون، ومن هذه التعاريف:

1- هو بيان ما يتعلق بموضوع من موضوعات الحياة الفكرية أو الاجتماعية أو الكونية من زاوية قرآنية للخروج بنظرية قرآنية بصده.

2- هو جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية.

3- هو بيان موضوع ما من خلال آيات القرآن، الكريم في سورة واحدة أو سور متعددة.

4- هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحددة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها، على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع.

5- هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر.¹³
ولعل التعريف الأخير هو أشمل وأوجز تعريف، وهو التعريف الذي رجحه كثير ممن كتب في التفسير الموضوعي من المعاصرين.

ويندرج تحت هذا اللون من التفسير ثلاثة أنواع نذكرها باختصار وهي:

1- **الموضوع القرآني**: أن يختار المفسر موضوعا من موضوعات القرآن العامة، ويجمع كل الآيات القرآنية التي تناولته، وينظر فيها ويستخرج منها الدلالات والهدايات المختلفة، ثم يعيد بناءها في نسق معين، ويقدم من خلالها الحلول للقضايا والمشاكل التي تدور في واقعه المعاش، وهذا النوع هو أساس وأصل التفسير الموضوعي.¹⁴

2- **المصطلح القرآني**: أن يختار المفسر لفظا من ألفاظ القرآن الكريم، ورد كثيرا في السياق القرآني، فيتبعه في السور والآيات، ويلحظ اشتقاقاته، وتصاريفه المختلفة، وينظر في الآيات التي أوردته مجتمعة، ويستخرج منها الدلالات واللطائف والحقائق.¹⁵

3- **السورة القرآنية**: أن يختار المفسر سورة من القرآن الكريم، فيستخرج هدفها الأساسي، أو أهدافها الرئيسية، ثم يبحث عن سبب النزول للسورة أو الآيات التي عرضت الموضوع الأساسي للسورة، ثم يدرس الأساليب القرآنية في عرض الموضوع، والمناسبات بين مقاطع الآيات في السورة، فيتوصل إلى شخصية السورة المستقلة ووحدتها الموضوعية.¹⁶

¹³ ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ص 20. دراسات في التفسير الموضوعي، زاهر بن عواض الألمعي، ص 07. مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص 16.

¹⁴ ينظر: محاضرات في التفسير الموضوعي، عباس عوض الله، ص 28.

¹⁵ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص 59.

¹⁶ ينظر: وقفات مع نظرية التفسير الموضوعي، عبد السلام حمدان اللوح، ص 21.

ولعل أكثر أنواع التفسير الموضوعي علاقة وارتباطا بعلم المناسبات هو التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، أو ما يصطلح عليه بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، إذ فيه يتجلى تناسب آيات السورة الواحدة فيما بينها، وتلاحم فقراتها، وترابط أجزائها، فتظهر السورة ذات شخصية مستقلة تميزها عن غيرها، وذات موضوع رئيس تدور حوله كل مقاطعها.

ففي هذا اللون من التفسير يظهر ترابط واتساق آيات ومقاطع كل سورة قرآنية، حتى أنك لا تستطيع أن تحرك قطعة من مكانها، أو تقدم وتؤخر بين أجزائها، حتى كأن السورة القرآنية كجسد الإنسان الواحد في اتساق أعضائه وتوافق حركاته، وقد يكون بين الآيتين أو الآيات زمنا طويلا في النزول، لكنك تتلمس وحدة الموضوع واتفاق الغاية والغرض عندما تقرأها في سورة واحدة وكأنها نزلت جملة، فالفارق الزمني لا دخل له في الحكم بمرامي السورة وأهدافها، فكما أن الزمن لم يكن له اعتبار قبل نزول القرآن إلى اللوح المحفوظ ثم إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ألغي هذا الاعتبار أيضا بعد جمع القرآن بين دفتي المصحف، ولم يبق له إلا دلالات مساعدة في إلقاء الأضواء على مضمون الآية أو الحكم الذي تشتمل عليه الآية الكريمة، وتبقى القاعدة المطردة التي استنتجها جهابذة علماء هذه الأمة نصب عين كل باحث وهي: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"¹⁷.

وقد أجاد عبد الله دراز في بيان هذا الأمر حيث قال: "... إن كانت بعد تنزيلها جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائما على قواعده فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته، ثم فرق أنقاضا فلم تلبث كل لبنة من أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصا بشد بعضه بعضا كهيئته أول مرة"¹⁸.

وإدراك الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ووضع اليد على شخصيتها المميزة، ليس بالأمر اليسير الهين، بل يتطلب دارسا بارعا ذا بصرٍ نافذ بمرامي الكلام، وإدراكٍ واعٍ لطرقه واتجاهاته،

¹⁷ ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص 57.

¹⁸ المرجع نفسه، ص 187-188.

وربط حكيم لأطرافه وجزئياته، حتى يصل إلى المناسبة بين ألفاظ القرآن وآياته، مع مداومة إخلاص النية وحسن القصد أولاً وآخراً.

وقد اجتهد جملة من الباحثين المعاصرين في هذا الميدان فاستنبطوا درراً يانعة وفوائد نافعة، وسوف نقتصر على ذكر بعضهم نظراً لمحدودية الدراسة:

1- محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم):

يعتبر محمد عبد الله دراز من أوائل المعاصرين الذين نهوا على موضوع الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، واجتهد في دراسة هذا الموضوع تفصيلاً وتطبيقاً في كتابه الممتع (النبأ العظيم)، ومما ذكر فيه قوله: " إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً؛ فإذا هي -لو تدبرت- بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول؛ فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحاق، كل ذلك بغير تكلفة ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلاً، والمختلف مؤتلفاً.

ولماذا نقول: إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظامان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرابين والعروق والأعضاء؛ ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية¹⁹.

¹⁹ النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص 188.

وحتى يبرهن على صحة نظريته وصدق مقولته قدم مثالا تطبيقيا بأطول سورة في القرآن وهي سورة البقرة، والتي ذكر أنها أطول سور القرآن كافة، وهي أكثرها جمعا للمعاني المختلفة، وهي أكثرها في التنزيل نجوماً، وهي أبعداها في هذا التنجيم تراخياً، والتي جمعت بضعاً وثمانين ومائتي آية، وحوّت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفاً وثمانين نجماً، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عدداً²⁰، مع ذلك فقد اجتهد في وضع وحدة موضوعية لهذه السورة والتي ذكر أن وحدتها تتألف من: مقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة على هذا الترتيب:

"المقدمة" في التعريف بشأن هذا القرآن، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حداً من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم، وإنما يعرض عنه من لا قلب له، أو من كان في قلبه مرض.
"المقصد الأول" في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.
"المقصد الثاني" في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.

"المقصد الثالث" في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً.
"المقصد الرابع" ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع وينهى عن مخالفتها.

"الخاتمة" في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم.
ثم أخذ يفصل ذلك.²¹

2- سيد قطب في تفسير (في ظلال القرآن):

يقول سيد قطب في وصف استقلالية كل سورة بشخصية متميزة رغم كونها متضمنة في قرآن واحد: "إن الشأن في سور القرآن من هذه الوجهة - أي وجهة استقلال كل منها بشخصية مميزة - كالشأن في نماذج البشر التي جعلها الله متميزة ... كلهم إنسان، وكلهم له خصائص الإنسانية،

²⁰ ينظر: النبأ العظيم، عبد الله دراز، ص 191.

²¹ ينظر: المرجع نفسه، ص 196 وما بعدها.

وكلهم له التكوين العضوي والوظيفي الإنساني ... ولكنهم - بعد ذلك - نماذج متنوعة أشد التنوع، نماذج فيها الأشباه القريبة الملامح، وفيها الأغيار التي لا تجمعها إلا الخصائص الإنسانية العامة. هكذا عدت أتصور سور القرآن، وهكذا عدت أحسها، وهكذا عدت أتعامل معها.. بعد طول الصحبة، وطول الألفة، وطول التعامل مع كل منها.. وفق طباعه، واتجاهاته، وملامحه وسماته، وأنا أجد في سور القرآن - تبعاً لهذا - وفرة بسبب تنوع النماذج، وأنسا بسبب التعامل الشخصي الوثيق، ومتاعاً بسبب اختلاف الملامح والطباع، والاتجاهات والمطالع! إنها أصدقاء.. كلها صديق، وكلها أليف، وكلها حبيب، وكلها ممتع، وكلها يجد القلب عنده ألواناً من الاهتمامات طريفة، وألواناً من المتاع جيدة، وألواناً من الإيقاعات، وألواناً من المؤثرات.. تجد لها مذاقاً خاصاً، وجواً متفرداً²².

وقد التزم سيد قطب في بداية تفسيره لكل سورة أن يصدرها بذكر الوحدة الموضوعية لها أو كما اصطلح عليه " الجو العام للسورة " ومن ذلك ما ذكره حول سورة الفرقان حيث قال: " هذه السورة المكية تبدو كلها وكأنها إيناس لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتسرية، وتطمين له وتقوية وهو يواجه مشركي قريش، وعنادهم له، وتطاولهم عليه، وتعنتهم معه، وجدالهم بالباطل، ووقوفهم في وجه الهدى وصددهم عنه.

فهي في لمحة منها تصور الإيناس اللطيف الذي يحيط به الله عبده ورسوله وكأنما يمسح على آلامه ومتاعبه مسحاً رقيقاً ويهدد قلبه، ويفيض عليه من الثقة والطمأنينة، وينسم عليه من أنسام الرعاية واللفظ والمودة.

وهي في اللمحة الأخرى تصور المعركة العنيفة مع البشرية الضالة الجاحدة المشاقة لله ورسوله، وهي تجادل في عنف، وتشرد في جموح، وتتطاول في قحة، وتتعتت في عناد، وتجنح عن الهدى الواضح الناطق المبين²³.

3- محمد محمود حجازي في رسالته (الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم):

²² في ظلال القرآن، سيد قطب، 1243/3.

²³ المصدر نفسه، 2544/5.

يعد محمد محمود حجازي أول من صرح بمصطلح "الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم"²⁴ وهو عنوان رسالته لنيل الدرجة العالمية العالية (الدكتوراه) في التفسير وعلومه من جامعة الأزهر، والذي ذكر في مقدمتها: "ولقد راغني وأنا أكتب (التفسير الواضح) هذا النسق العجيب في سور القرآن وترتيبها في المصحف، فهذه سورة مدنية بجوار سورة مكية، وهذه سورة مدنية وسط عدد من السور المكية، وهكذا.

ثم إذا نظرت إلى نفس السورة وآياتها تجد العجب العجيب، تجد السورة وقد جمعت آيات متعددة، وإن تكن متناسبة ومتلائمة، ولكنك تجد السورة تتحدث في موضوع خاص، فمتى قرأت غيرها تجدها تحدثت هي الأخرى عن نفس الموضوع، ولكن بشكل خاص ونسق يلتئم مع جو السورة التي قيل فيها، هذه ظاهرة استرعت البحث والنظر، أما السابقون فتخلصوا من هذا بالقول بالنسخ فالآية المتأخرة نسخت المتقدمة وهكذا، وأما نحن فقد هدانا الله إلى القول بنظرية (الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم)"²⁵

4- محم عزة دروزة في تفسيره (التفسير الحديث):

أوضح في تفسيره الذي رتبته على ترتيب النزول اهتماما كبيرا بإظهار ما بين آيات وفصول السورة من ترابط لتجلية النظم القرآني والترابط الموضوعي فيه.

5- محمد سعيد حوى في تفسيره (الأساس في التفسير):

اهتم كذلك ببيان الوحدة الموضوعية في صدر تفسيره لسور القرآن الكريم.

6- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه (معارج التفكير ودقائق التدبر):

وقد سلك نهج ترتيب السور على تاريخ النزول، واجتهد في إثبات أن كل سورة قرآنية تمثل بناءً متكاملًا له محور رئيسي تدور حوله جميع الآيات والمقاطع.

7- مصطفى مسلم في كتابه (مباحث في التفسير الموضوعي):

²⁴ علم المناسبات وأثره في تدبر القرآن الكريم، عبد المحسن زين المطيري، ص 49.

²⁵ الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي، ص 5.

خصص جزءا معتبرا من كتابه لدراسة الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، وقدم دراسة تطبيقية خصها بسورة الكهف، كما ذكر العلاقة بين التفسير الموضوعي والتناسب في القرآن الكريم.

8- موسوعة التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم

وهو من أكمل الأعمال في باب، وهي موسوعة تفسيرية ضخمة تتكون من عشر مجلدات، من إعداد نخبة من العلماء بإشراف الأستاذ الدكتور مصطفى مسلم، صدر عن كلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة، حيث خصص في بداية كل سورة بابا لدراسة الوحدة الموضوعية للسورة بذكر محورها الأساس الذي يجمع موضوعاتها وجزئياتها في نسق واحد، وكذا أهم المناسبات فيها على الترتيب الآتي:

- 1- المناسبة بين اسم السورة ومحورها.
 - 2- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.
 - 3- المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها.
 - 4- المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.
 - 5- المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.
 - 6- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها.
- إضافة إلى ذكر المناسبة بين كل مقطع ومحور السورة في نهاية كل مقطع أثناء تفسير السورة، كما يتعرض لذكر المناسبة بين مقاطع السورة إذا ما وجدت.
- كما أن هناك العديد من الدراسات الأكاديمية رسائل ماجستير (ماستر) ودكتوراه حول الوحدة الموضوعية حول بعض السور القرآنية في مختلف الجامعات الإسلامية في ربوع العالم العربي والإسلامي.

وكل هذه الجهود والإسهامات أثمرت جملة من الروائع البيانية والفوائد البلاغية والهدايات القرآنية من خلال السعي في استنباط الروابط والوشائج بين الآيات والمقاطع القرآنية في السورة الواحدة.

المطلب الثاني: دور التفسير المقاصدي في تجديد علم المناسبات

التفسير المقاصدي كلون مستقل من ألوان التفسير يعتبر حديث النشأة، وقد اجتهد مجموعة من أهل الاختصاص في حده بتعريف جامع، ومن هذه التعريفات:

1- عرف بأنه: " ذلك النوع من التفسير الذي يهتم ببيان الأغراض والمقاصد التي تضمنها القرآن وشرعت من أجلها أحكامه، ويكشف عن معاني الألفاظ، مع التوسع في دلالتها مراعيًا في ذلك قواعد التفسير بالمأثور، والسياق والمناسبات "²⁶.

2- عرف كذلك: " لون من ألوان التفسير يبحث في الكشف عن المعاني والغايات المتنوعة التي يدور حولها القرآن الكريم كليًا أو جزئيًا، مع بيان كيفية الإفادة منها في تحقيق مصلحة العباد.

ونعني ب (كليًا أو جزئيًا) المقاصد العامة لقرآن الكريم، التي تحدث عنها القرآن نفسه، والمقاصد الجزئية التي ربما تكون خاصة بموضوع أو سورة أو مجموعة من الآيات، أو حتى آية واحدة، وربما لفظة واحدة وبيان المراد منها، والنص على (بيان كيفية الإفادة منها) جاء للتأكيد على أن التفسير ليس للتفسير وحسب، وإنما لبيان كيفية استنزال هدايات القرآن على الواقع المعاصر "²⁷.

²⁶ : التفسير المقاصدي إشكالية التعريف والخصائص، نشوان المخلافي ورضوان الأطرش، ص 134.

²⁷ : التفسير المقاصدي، وصفي عاشور، ص 8.

3- عرف كذلك: " استحضار المصالح الشرعية في تفسير النصوص واستنباط أحكامها والترجيح بينها"²⁸.

4- عرف كذلك: " الكشف عن مراد الله عز وجل فيما أنزله في القرآن الكريم من مضامين، وأسس، وحكم، وعبر، ومعان غائية، سواء أكان منصوحا عليها، ام مستنبطة من تراكيبه، أو آياته، أو سوره، أو موضوعاته، وبيان بنائها التكاملي"²⁹.

هذه أهم التعريفات التي قدمها الباحثون للتفسير المقاصدي وهي اجتهادات محمودّة في محاولة وضع حد معرفي لهذا اللون من التفسير إلا أنها لا تزال بحاجة إلى تمحيص وتدقيق لأجل الوصول إلى تعريف جامع مانع له، وكإسهام في هذا الميدان يمكن القول أن التفسير المقاصدي هو: " لون من ألوان التفسير يهتم بتدبر ألفاظ القرآن وآياته من أجل الوصول إلى مقاصدها وغاياتها المرادة شرعا والاهتداء بها في تحقيق مصالح العباد".

أما عن علاقة هذا اللون من التفسير بعلم المناسبات وخدمته له ودوره في إضفاء نوع من التجديد عليه، فإن ذلك يظهر في ربط علم المناسبات بمقاصد القرآن الكريم العامة والخاصة، إضافة إلى الاستفادة من علم المناسبات في تحديد مقصد السورة العام وأغراضها المتفرعة عنه، والذي اصطلح عليه بالتفسير المقاصدي للسورة القرآنية ويعرف بأنه: " نوع من أنواع التفسير المقاصدي الخاص يبحث في أهداف وغايات السورة الواحدة، مع الكشف عن وجه الإفادة منها لتحقيق مصلحة العباد في العاجل والآجل"³⁰.

ومن أشهر المفسرين المعاصرين اهتماما بهذا المجال، الإمام ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير، والذي يعد فارس هذا الميدان، لما له من جهود مقاصدية معتبرة، تظهر في كتابه الماتع " مقاصد الشريعة الإسلامية"؛ الذي لا يُستغنى عنه في هذا الفن، إضافة إلى أنه خصص المقدمة

²⁸ : التفسير المصالح لنصوص القرآن بين مدرسة الأحناف والمالكية، ابن رابح، يوسف منير، ص 85.

²⁹ : التفسير المقاصدي للقرآن الكريم، علي محمد أسعد، ص 17.

³⁰ التفسير المقاصدي لسور القرآن، وصفي عاشور، ص 14.

الرابعة من مقدمات تفسيره لذكر المقاصد العامة للقرآن، كما أنه التزم في تفسيره أن يُصَدَّر كل سورة بذكر أغراضها أو مقاصدها العامة، بتحرير عميق وإيجاز دقيق، قال في مقدمة تفسيره: " ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها، لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته ومعاني جملة كأنها فِقَرٌ متفرقة، تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله"³¹

ومما يظهر ربط ابن عاشور لعلم المناسبات بمقاصد الآيات وأغراضها قوله: "وأما ترتيب الآي بعضها عقب بعض فهو بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم حسب نزول الوحي، ومن المعلوم أن القرآن نزل منجما آيات فربما نزلت عدة آيات متتابعة أو سورة كاملة، كما سيأتي قريبا، وذلك الترتيب مما يدخل في وجوه إعجازه من بداعة أسلوبه كما سيأتي في المقدمة العاشرة، فلذلك كان ترتيب آيات السورة الواحدة على ما بلغتنا عليه متعينا بحيث لو غير عنه إلى ترتيب آخر لنزل عن حد الإعجاز الذي امتاز به ... واتساق الحروف واتساق الآيات واتساق السور كله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلهذا كان الأصل في أي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض أو في الانتقال منه أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل"³².

وهذا الكلام يدل على أن ابن عاشور بفهمه المقاصدي وسّع من دائرة علم المناسبات وأضفى عليه نوعا من التجديد، وذلك بالبحث والتفتيش عن المناسبات بين مقاصد الآيات وغاياتها، وليس مجرد الاقتصار على المناسبة بين المواضيع فحسب، وقد أبدع ابن عاشور باستنباط بعض الفوائد والروائع في ربط مقاصد الآيات بعضها بعض بنظرة ثاقبة وتحليل دقيق لمعاني الألفاظ والآيات وارتباطها ببعضها واتساقها فيما بينها، وسنورد بعض هذه النماذج مع التعليق عليها.

النموذج الأول: مناسبة أغراض السورة لمحورها الأساس

قال ابن عاشور في بداية سورة الإسراء: "العماد الذي أقيمت عليه أغراض هذه السورة إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

³¹ التحرير والتنوير، ابن عاشور، 8/1.

³² التحرير والتنوير، ابن عاشور، 79/1.

وإثبات أن القرآن وحي من الله.

وإثبات فضله وفضل من أنزل عليه.

وذكر أنه معجز.

ورد مطاعن المشركين فيه وفيمن جاء به، وأنهم لم يفقهوه فلذلك أعرضوا عنه.

وإبطال إحالتهم أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم أسري به إلى المسجد الأقصى³³.

التعليق:

ذكر ابن عاشور المحور الأساس لسورة الإسراء وهو إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر أغراض السورة واحدا تلو الآخر، وإذا ما تأملنا في هذه الأغراض نجدها كلها تتناسب مع المحور الأساس للسورة وتتسق معه وتصب في خدمته، فإثبات أن القرآن وحي من عند الله وليس بكلام بشر أو بكلام مفترى هو إثبات لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وإثبات فضل القرآن وأنه كتاب معجز تحدى به تعالى عموم الثقيلين فعجزوا على أن يأتوا بمثله، ورد كل مطاعن المشركين حوله، وأنهم ما حاربوه إلا لأنهم لم يفقهوا أحكامه ولم يهتدوا إلى أسرارهم، كل هذا يعزز ويصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والكتاب الذي جاء به، وإثبات حادثة الإسراء والمعراج والرد على تكذيب المشركين لها، هو من أعظم معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ودليل على صدق نبوته، وعليه فكل أغراض السورة تتناسب وتتوافق مع محورها الأساس وتخدم غايتها وهدفها الأسمى.

النموذج الثاني: مناسبة افتتاحية السورة لغرضها الأساس

يذكر ابن عاشور أحيانا مناسبة افتتاحية السورة لغرضها الأساس كصنيعه في مستهل سورة النساء حيث قال: "... وقد اشتملت على أغراض وأحكام كثيرة أكثرها تشريع معاملات الأقرباء وحقوقهم، فكانت فاتحتها مناسبة لذلك بالتذكير بنعمة خلق الله، وأنهم محققون بأن يشكروا ربهم على ذلك، وأن يراعوا حقوق النوع الذي خلقوا منه، بأن يصلوا أرحامهم القريبة والبعيدة،

³³ المصدر نفسه، 7/15.

وبالرفق بضعفاء النوع من اليتامى، ويراعوا حقوق صنف النساء من نوعهم بإقامة العدل في معاملاتهم³⁴.

التعليق:

يذكر ابن عاشور في هذا المثال وجه المناسبة بين افتتاحية السورة وغرضها الأساس، فالغرض الأساس من سورة النساء هو تشريع بعض الأحكام الخاصة بالأقرباء والأرحام، فجاءت افتتاحية السورة بالتذكير بنعمة الخلق والإيجاد، والدعوة إلى شكر هذه النعمة من خلال صلة الأرحام والرفق بالضعفاء واليتامى ومراعاة حقوق النساء لضعفهن وتقصير كثير من الناس في حقوقهن.

النموذج الثالث: التناسب بين الآيات من حيث الغرض والمقصد

في ذكر وجه المناسبة بين الآيات في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ [البقرة: 43-45] قال ابن عاشور: "اعتراض بين قوله: وأقيموا الصلاة [البقرة: 43] وقوله: واستعينوا بالصبر والصلاة [البقرة: 45] ووجه المناسبة في وقوعه هنا أنه لما أمرهم بفعل شعائر الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وذيل ذلك بقوله: واركعوا مع الراكعين [البقرة: 43] ليشير إلى أن صلاتهم التي يفعلونها أصبحت لا تغني عنهم، ناسب أن يزداد لذلك أن ما يأمر به دينهم من البر ليسوا قائمين به على ما ينبغي، فجاء بهذا الاعتراض، وللتنبية على كونه اعتراضا لم يقرن بالواو لئلا يتوهم أن المقصود الأصلي التحريض على الأمر بالبر وعلى ملازمته، والغرض من هذا هو النداء على كمال خسارهم ومبلغ سوء حالهم الذي صاروا إليه حتى صاروا يقومون بالوعظ والتعليم كما يقوم الصانع بصناعته والتاجر بتجارته لا يقصدون إلا إيفاء وظائفهم الدينية حقها ليستحقوا بذلك ما يعوضون عليه من مراتب ورواتب فهم لا ينظرون إلى حال أنفسهم تجاه تلك الأوامر التي يأمر بها الناس.

التعليق:

³⁴ التحرير والتنوير، ابن عاشور، 213/4.

ذكر ابن عاشور أن وجه المناسبة بين الآيتين هو الاتحاد في الغرض والمقصد، فكما كان الغرض من الآية الأولى هي إخبارهم بأن الصلاة التي يؤدونها لا تغني عنهم شيئاً لعدم إقامتها على الوجه الصحيح، فكذلك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لا يغني عنهم شيئاً لعدم قيامهم به على الوجه المطلوب، لأنهم لم ينتفعوا ابتداء بهذه الدعوة ونسوا أنفسهم التي هم أولى بها، ولم يخلصوا في دعواهم لأنهم ابتغوا بها عرض الدنيا.

ومن بدائع ابن عاشور إسقاطه للغرض من هذه الآية على الواقع المعاصر ببيان فساد نية وقصد الدعاة والوعاظ في هذا الزمان، إذ أصبحوا لا يهتمون إلا بأداء وظائفهم الدينية وما يحصلونه من أجور ورواتب مقابل ذلك، ولا يهتمهم إصلاح حال الأمة وهداية الناس إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وهذا من أهم فوائد التفسير المقاصدي الذي يركز على غايات وأغراض الآيات القرآنية واستعمالها في إصلاح شؤون العباد.

المبحث الثالث: تقييم علم المناسبات وما طرأ عليه من تطور

بعد هذه الجولة حول التعريف بعلم المناسبات وإبراز أهم إسهامات المعاصرين فيه، حري أن نقوم بدراسة تقييمية لهذه الإسهامات، بذكر ما لها وما عليها، وسوف نشير بهذا الصدد إلى أهم مزايا وإيجابيات هذا العلم ومدى خدمته لعلم التفسير، وكذا ذكر بعض الملاحظات والمؤاخذات التي سجلت على بعض الممارسات بهذا الصدد، وأهم الضوابط العلمية والمنهجية التي تقي من الوقوع في الخطأ والانحراف في هذا الفن.

المطلب الأول: فوائد ومزايا علم المناسبات

علم المناسبات من العلوم الجليلة المتعلقة بالقرآن الكريم، له فوائد وثمرات متعددة، وقد امتدحه جماعة من المتقدمين والمتأخرين:

قال فيه الزركشي: "واعلم أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول ... ولهذا قيل المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول"³⁵.
قال الفخر الرازي قال: "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"³⁶.
وقال السيوطي: "علم المناسبة علم شريف قل اعتناء المفسرين به لدقته"³⁷.

³⁵ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، 35/1.

³⁶ المصدر نفسه، 36/1.

³⁷ معترك الأقران، جلال الدين السيوطي، 43/1.

وقال البقاعي في نظم الدرر: "وهو سر البلاغة؛ لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجازة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك في معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير كنسبة علم البيان من النحو"³⁸.

وقال مناع القطان: "كما أن معرفة سبب النزول لها أثرها في فهم المعنى وتفسير الآية، فإن معرفة المناسبة بين الآيات تساعد كذلك على حسن التأويل، ودقة الفهم"³⁹.
ومن ثمرات هذا العلم وفوائده:

1- بيان وجه مهم من وجوه إعجاز القرآن المجيد، وإثبات كونه من عند الله العلي الحكيم. فقد جعل الله - سبحانه - هنا الاتساق والتلاؤم بين آياته من دلائل حقيقته وكونه من لدنه - سبحانه -، فقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُفْقَاءَ لَوْ كَانُوا مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء 82] إذن فنفي التنافر والاختلاف عن القرآن المجيد (سور وآيات) مما يثبت إلهية مصدره، وحقيقة تنزيله، ومثل هذه الغاية توجه الهمم، وتشجذ العزائم⁴⁰.

2- يساعد على معرفة الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، ومدى ترابط مقاطعها، واتساقها فيما بينها.

3- يسهم في تجلية مقاصد السورة وأغراضها، فيظهر أن لكل سورة محور أساس تدور حولها كل أغراضها وتصب في خدمتها وتتوافق معه.

4- ترسيخ الإيمان في القلب وتمكينه من اللب

5- يفيد في معرفة أسرار التشريع والغاية من الأحكام وإدراك مدى التلازم التام بين أحكام الشريعة.

³⁸ نظم الدرر في تناسب الآي والسور، البقاعي، 6/1

³⁹ مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص 96.

⁴⁰ مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، عادل بن محمد أبو العلاء، ص 22.

6- يعين على فهم معنى الآيات وتحديد المراد منها، وترجيح أحد المعاني على غيره في حال وقوع خلاف بين المفسرين، فالمعنى الذي يتوافق مع سياق الآية وسباقها مقدم على المعنى الذي يتنافر معها.

7- يتبين به سر التكرار في قصص القرآن، وأن كل قصة أعيدت في موطن فلمناسبتها ذلك الموطن، ولذلك ترى اختلافاً في ترتيب القصة ونظمها بحسب المناسبة وإن كانت متحدة في أصل المعنى.⁴¹

المطلب الثاني: مؤاخذات وضوابط

سنخصص هذا المطلب لذكر بعض المؤاخذات التي أفرزتها بعض الممارسات غير المنضبطة في مجال علم المناسبات، ومن ثم ذكر أهم الضوابط والشروط التي يجب التزامها حتى لا يقع الباحث في الزلل والانحراف في هذا الباب.

أولاً: التكلف في استخراج المناسبات بين السور والآيات:

رغم ما يكتسبه علم المناسبات من أهمية، وما يقدمه من ثمرات وفوائد في فهم كلام الله وبيان ترتيبه وإعجازه، إلا أن التكلف في استخراج مناسبة بين كل سورة وأخرى وبين كل آية وأختها، أخرج هذا العلم عن غايته وحاده عن مقصده، وأوقع بعض الباحثين في تكلفات وتعسفات لا تمت لسياق القرآن ونظمه بصلة.

وهذا الصنيع من التكلف مذموم منذ القدم فقد قال فيه العز بن عبد السلام: "واعلم أن من الفوائد أن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض؛ ويتشبه ببعضه ببعض، لئلا يكون مقطوعاً متبرأ، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر متحد، فيرتبط أوله بآخره. فإن وقع على أسباب

⁴¹ ينظر: علم المناسبات وأثره في تدبر القرآن الكريم، عبد المحسن بن زين المطيري، ص 41.

مختلفة، لم يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر، ومن ربط ذلك فهو متكلف لما لم يقدر عليه إلا بربط ركيك، يصران عن مثله حسن الحديث، فضلا عن أحسنه⁴².

وعليه فضابط هذا المسألة أن يبذل الباحث قصارى جهده للتعرف على وجه المناسبة بين الآيات، فإن ظهر له شيء من ذلك فذلك نعمة من الله تعالى وفضل عليه، وله أن يقول به ويظهره خدمة لكتاب الله تعالى، وإن خفي عليه وجه المناسبة فعليه أن يمسك ولا يتكلف، وينسب علم ما خفي عليه إلى منزل الكتاب الذي أمر بترتيبه على هذا الشكل، ولا يدرك أسرار كتاب الله كلها أحد من البشر ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان 6]

"43.

ثانيا: الخوض في علم المناسبات على جهل وهوى

من الباحثين من ولج باب علم المناسبات وخاض فيه على جهل دون أن يمتلك أدنى شروطه ووسائله، فأتى بالعجائب وأفسد أكثر مما أصلح، وجاء بكلمات ينزه عنها كلام البلغاء من البشر فضلا عن كلام رب العالمين.

وعليه فضابط هذه المسألة أن يعلم أن علم المناسبات علم جليل القدر دقيق المسالك خفي المدارك، ولا يتبوأ له إلا من رسخت قدمه في المعرفة بلغة العرب وأساليبهم في الكلام واستعمالاتهم للألفاظ ودلالاتها، وإحاطة بأفانين علم البلاغة وأساليب البيان، ومعرفة واسعة بمعاني الآيات وأسباب نزولها وسياقات ورودها.

وفوق كل ذلك ينبغي أن يكون الباحث ذا نفس طاهرة، وذكاء وقاد، وحس مرهف، ليدرك سر هذا الترتيب للآيات التي وضعت بجوار بعضها، وقد يكون بينها في النزول فاصلا زمنيا طويلا.

ثالثا: الجزم بصحة المناسبة وأنها مرادة من الله

⁴² الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، العز بن عبد السلام، ص 278.

⁴³ ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص 66.

يخطئ بعض الباحثين في جزمهم بأن ما يتوصلون إليها من مناسبات بين الآيات والسور صحيحة لا شك ولا مرية فيها، ويذهب بعضهم أنها من تفسير كلام الله تعالى ومرادة منه، بل ويذهب البعض في المبالغة أنها أهم من التفسير نفسه، وهذا في حقيقة الأمر سوء فهم ونقص بصيرة، إذ لا يجزم بصحة تفسير إلا ما كان بنص نقلي صحيح صريح، أو من المحكم المجمع عليه، وما دون ذلك فكله عمل بشري واجتهاد إنساني يعتريه الخطأ والصواب، ولو كان علم المناسبات قطعي لما اختلفت فيه أفهام المفسرين وآرائهم.

وعليه فضابط هذه المسألة أن يعلم أن علم المناسبات علم اجتهادي وليس بعلم توقيفي، يستند لفهم المفسر ومتانة فكره وطول تأمله، ومدى إحاطته بالعلوم المتعلقة بالقرآن الكريم، وهو من الفوائد والملح والاستنباطات، التي ترسخ معاني القرآن وتقوي مدلولات ألفاظه، وتظهر جزالة نظمه واتساق ترتيبه، وأنه وحي يوحى وليس بكلام بشر.

رابعاً: استغلال علم المناسبات لغايات وأغراض منحرفة

ونقصد بذلك صنيع بعض الفرق الضالة والطوائف المنحرفة، في استغلال علم المناسبات في إثبات عقائدها الباطلة وآرائها المنحرفة، كطائفتي المعتزلة والشيعة قديما، وطائفة الحداثيين في الوقت المعاصر، والتي اجتهدت في توظيف بعض المناهج الغربية كتاريخية النص والسياق التداولي والهرمنيوطيقا ... في فهم نظم القرآن وترتيبه، دون مراعاة لخصوصية النص القرآني وقدسيته، ما أو قعها في العديد من المزالق والتجاوزات.

وعليه فضابط هذه المسألة أن يتحلى الباحث في هذا الباب بالورع وتقوى الله، وأن يراعي قدسية القرآن وخصوصيته، وألا يخالف أصلاً شرعياً ثابتاً أو نصاً شرعياً صحيحاً.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بفضلله تتم الصالحات وبِعونه وتوفيقه تقضى الحاجات، فقد أتيت على خاتمة هذه الدراسات، والتي تضمنت أهم النتائج:

- 1- يعد علم المناسبات من أدق وأجل العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم، يهتم بالكشف عن سر ترابط واتساق سور القرآن وآياته، ويهدف إلى بيان روعة نظم القرآن، وحسن ترتيبه، وقوة سبكه، مما يزيد في إثبات إعجازه وأنه حي رباني وليس بكلام كائن بشري .
- 2- يعتبر التفسير الموضوعي للسورة القرآنية، من أهم ألوان التفسير المعاصر خدمة لعلم المناسبات، وذلك من خلال إظهار تناسب آيات السورة الواحدة فيما بينها، وتلاحم فقراتها، وترابط أجزائها، فتظهر السورة ذات شخصية مستقلة تميزها عن غيرها، وذات موضوع رئيس تدور حوله كل مقاطعها.
- 3- من أهم مظاهر التجديد في علم المناسبات ربطه بمقاصد الآيات وغاياتها، فلا يقتصر علم المناسبات عن بيان المناسبة بين مواضيع السورة فحسب، بل يتعداه إلى البحث عن وجه المناسبة بين أغراض السورة وأهدافها، مع الكشف عن وجه الإفادة من ذلك في معالجة شؤون العباد وتحقيق مصلحتهم في العاجل والأجل.
- 4- لعلم المناسبات أهمية كبيرة وثمار متعددة إذ يعين على فهم معاني الآيات وتحديد المراد منها، وترجيح أحد المعاني على غيره في حال وقوع خلاف بين المفسرين، ويفيد في معرفة أسرار التشريع والغاية من الأحكام، ويكشف عن وجه التكرار في القصص القرآني.
- 5- التكلف في لزوم وجود مناسبة بين كل سورة وأخرى وبين كل آية وأختها أمر مذموم، يخرج هذا العلم عن مقصوده ويحيد به عن غايته، إذ الواجب على الباحث أن يجتهد في تلمس وجه المناسبة وسعه، فإن وصل إلى أمر فذاك، وإن لم يصل لشيء فعليه أن يمسك ولا يتكلف، ويوكل ذلك لأمر علام الغيوب.
- 6- علم المناسبات علم اجتهادي وليس بعلم توقيفي، فلا يصح الجزم فيه والقطع، بل هو فتح رباني واجتهاد بشري، يعتريه الخطأ والصواب، وهو من الاستنباطات والملح التي تختلف فيها الأفهام وتتنوع فيها الأقوال.

7- كل من ولج باب علم المناسبات عن جهل وهوى أو استغله لأغراض منحرفة أضل السبيل وأتى بالأعاجيب، فعلى المتصدر لهذا العلم أن يتحلى بتقوى الله وحسن القصد، والإحاطة بالقرآن وعلومه، وأن يراعي قدسية القرآن ويحترم خصوصيته.

قائمة المصادر والمراجع

• القرآن الكريم: مصحف المدينة للنشر الحاسوبي الإصدار الأخير.

- 1- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، دمشق-سوريا، ط1، 1429هـ.
- 2- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، العز بن عبد السلام، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، د ط.
- 3- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1376هـ.
- 4- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 م.
- 5- التفسير المصالح لنصوص القرآن بين مدرسة الأحناف والمالكية، ابن رابح، يوسف منير، مركز نماء، بيروت، الطبعة الأولى، 2015م.
- 6- التفسير المقاصدي إشكالية التعريف والخصائص، نشوان المخلافي ورضوان الأطرش، قرآنكا مجلة عالمية لبحوث القرآن، ملايا/ماليزيا، مركز بحوث القرآن، 2013 م، مج 5، عدد2.
- 7- التفسير المقاصدي للقرآن الكريم تقديم وتقييم، شكري فريد، مختبر الأبحاث والدراسات في العلوم الإسلامية، كلية الآداب المحمدية، دار أبي رقرق .
- 8- التفسير المقاصدي للقرآن الكريم، علي محمد أسعد، مجلة بحوث ودراسات إسلامية المعرفة، العدد 89، 1438 هـ/ 2017 م.
- 9- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح الدين الخالدي، عمان، دار النفائس، الطبعة الثانية، 1433 هـ/ 2012 م.
- 10- المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، دار النشر والتوزيع الإسلامية، ط 2، 1411 هـ/ 1991 م .
- 11- النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، 2005 م.
- 12- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، محمد محمود حجازي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، د ط.
- 13- تناسق الدرر في تناسب السور، جلال الدين السيوطي، ت: عبد القادر أحمد عطا ومرزوق علي إبراهيم، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1422 هـ/ 2002 م.

- 14- دراسات في التفسير الموضوعي، زاهر بن عوض الأملعي، بيروت، مطابع الفرزدق، د ط .
- 15- علم المناسبات وأثره في تدبر القرآن الكريم، عبد المحسن بن زين المطيري، شركة معالم التدبر، الرياض، ط 1، 1440 هـ .
- 16- علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه، نور الدين عتر، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، ط 1، 1432 هـ .
- 17- علم المناسبات، عمر بازمول، المكتبة المكية، د ط .
- 18- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة-دمشق، ط 17، 1412 هـ .
- 19- مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، ط 4، 1426 هـ .
- 20- محاضرات في التفسير الموضوعي، عباس عوض الله، دمشق، دار الفكر، ط 1، 1428 هـ / 2007 م .
- 21- مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، عادل بن محمد أبو العلاء، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، د ط، 1425 هـ .
- 22- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط 1، 1408 هـ .
- 23- معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، ط 1، 1429 هـ .
- 24- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د ط، 1399 هـ .
- 25- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ط .